من التاريخ الإسلامي :

وديعة الله (*)

للأستاذ علي الطنطاوي

[إلى أصدقائي وتلاميذي في بغداد، ولا سيما الأحبة على طريق الأعظمية ليذكروني بهذه الهدية كما أذكرهم دائما]

« علي »

كان فتى من أبناء التجار ، بارع الفتوّة ، واسع الغنى ، قد جمعت له اللذائذ ، وسيقت إليه المنى ، وكأنه البحر تنصبّ فيه جداول الذهب ، وداره الجنة تجري من تحتها الأنهار ، وفيها الحور العين ، خمسون من الجواري الفاتنات اللائي حملن إلى بغداد من أقطار الأرض وحشدن فيها ، كما تحمل إلى مخدع العروس كل وردة فاتنة في الروض ، وزهرة جميلة في الجبل ...

(*) كتبت لتذاع من محطة الشرق الأدنى في يافا وأصل القصة في الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي في أوائل الجزء الثاني فليرجعها القراء .

وأعروا ذراريها ، وهتكوا الستور عن أحرار نسائها . يا له من منطق ! وهل في طاقة أحد أن لا يقتنع برأيهم في حفظ كيان هذه الامبراطورية الضخمة ! كلا بل ينبغي أن يُطيع العالم وأن يَسمع . فلو أن الإنجليز فرّطوا لهوى العلم البريطاني إلى الرغام في أرض الهند ، ولبقيت الهند عارية لا تجدُ هذا الدفء الحلو اللذيذ ، ولا هذا الظل الوارفَ الناعم الذي ينشره عليها علم بريطانيا !

فحدثني أيها الصديق ماذا تريد بعد ذلك أن أقول لك في هذه المعاهدة التي تريد إنجلترا أن توقعها مصر راغمة أو راضية ! دَعْ عنك الحيرة ، ودع عنك تقلب الرأي ، واختر لي أنت رأياً أصير إليه . وإلا فإني أقول لك كما قلت دائماً : إن المعاهدة بيننا وبين بريطانيا ، هي أن ندخل معها في جُحر اليربوع حتى إذا استقرّ بنا المقام قليلا « نفقت » كما يمرق اليربوع من نافقائه إذا سُدّت عليه المسالك !

محمود محمد شاكر

ولكنه لم يشعر بنعيم الحياة ، ومتعة العيش ، حتى اشترى هذه الجارية بخمسمائة دينار ، وكان قد رآها في سوق الرقيق فرأى جمالا أحلى من أحلام الحب ، وأجل من بلوغ الأماني ، وأطهر من زنبقة الجبل ، فهام بها هياماً وزاد فيها حتى بلغ بها هذا الثمن ، وانصرف بها إلى داره ، - وهو يحسب أنْ قد حيزت له الدنيا ، وأمتع بالخلود ، واشتغل بها وانقطع إليها ، ولم يعد يخرج إلى الدكان إلا ساعة كل يوم ثم لا يستطيع أن يصبر عنها ؛ ويزلزله الشوق إليها ، وتدركه هواجس الحب فيغار عليها ، لا من الناس فما يصل الناس إليها ، بل من الشمس أن تلمحها عين الشمس ، ومن النسيم أن تلمسها يد النسيم . ويشعر بهذه الغيرة المحرقة في قلبه ، فيُهرع إليها ليطفئها بلماها ...

لقد صار هذا الحب مصدر لذته ، وسر حياته ، ما كان يدري من قبله ما اللذة وما الحياة ، وما كان يحسّ أنه يعيش حقاً وأن له قلباً ، وما كان يدرك من قبله بهاء النهار ، ولا فتنة الليل ، ولا سحر القمر ، كان ذلك عنده كالألفاظ بلا معنى ، يفهم منه ما يفهمه الأعجمي إذا تلوت عليه غزل العرب ؛ فلما عرف الحب أدرك أن وراء هذه الألفاظ معاني تهز الفؤاد ، وتستهوي القلب . وكان يمشي في طريق الحياة كما يمشي الرجل في المتحف المظلم فطلع عليه هذا الحب نوراً مشرقاً أراه هذه التحف الفاتنات وهذه الروائع ...

***

وتتالت الأيام ، وزاد إقبالا عليها وإعراضاً عن الدكان . وكان يبصر دنياه تدبر عنه ، وتجارته تذوب في ضرم هذا الغرام كما يذوب الثلج ، وتتبدد كما يتبدد الندى في وهج الشمس ، ولكنه لا يكره هذا الحب ولا ينفر منه ولا يزداد إلا تعلقاً به وتمسكا بأهدابه . وكان كل ما في الحياة من متع ، لا يعدل عنده لحظة واحدة من لحظات الوصال ، وذهب الأرض كله لا يساوي هناءة من هناءات الحب ، فكان يترك البائعين والمشترين ويسعى إليها ليشتري منها اللذاذات والقبل .

وكانت كلما نصحته وأرادته على العود إلى تجارته قال لها : مالي وللمال ؟ أنت مالي وتجارتي ومكسبي ، فلا تستطيع أن تفتح فمها بجواب لأن شفتيه تقيدان فمها فلا ينفتح !

***

وأصبح الرجل ذات يوم فاذا التجارة قد بارت ، وباد المال ، وذهب الأثاث ، وبيعت الجوارى ، ولم يبق فى يده شىء يباع ! فأقبل ينقض الدار ويبيع أنقاضها ، ولم يأس على ذاهب ، ولم يحس بفقد مفقود ، فقد كان يلقى الحبيبة ، ويجد فى حبها غذاءه إذا جاع ، وريّه إذا عطش ، ودفئه إذا برد ، وفى وجنتيها ما يغنيه عن الأوراد ، وفى ثناياها بديلا من اللآلئ ، وفى ريقها عسله المصفّى ، وخمره المعتق ، ومن ريحها عطره الفواح ، وفى صدرها دنياه وآخرته ، ويرى الدار الخالية معها قصراً عامراً ، والصحراء روضة مزهرة ، والليل المظلم معها نهاراً مضيئاً ...

وأثمر الحب وجاء الحصاد ، ولكنه قد خالف موعده ، فلم يجىء فى الربيع الطلق ، ولا فى الصحو الجميل ، بل قدم فى الشتاء الكالح ، والأيام القاتمة الدكناء أيام الفقر والعوز ؛ وأخذها المخاض فجعلت تتلوى من الألم على أرض الحجرة ، وما تحتها إلا حصير تقطعت منه الخيوط ، وفراش بلى وجهه وتناثر قطنه حتى اختلط بالتراب ... وطال عليها الوجع وهو واقف أمامها يحس أن ألمها فى ضلوعه ، وأن كل صرخة منها سكين[1] حمى يحز فى قلبه ، ولكنه لا يملك لها شيئاً ، وقالت له بعد أن عجزت عن الاحتمال :

— إنى أموت ... فاذهب فاحتل بشىء تشترى به عسلا ودقيقاً وشيرجاً[2] ... اذهب وعجل ، فانك إذا أبطأت لم تجدنى .

***

وخرج ... وصار يعدو كالمجنون ... أين يذهب والليل قد مالت نجومه ، والناس نيام فى دورهم ، ولا يجد من يلجأ إليه ، فقد فصله الحب عن الدنيا وصيّره غريباً فيها ، ليست منه ولا هو منها ، وكذلك يصنع الحب ! وجعل يهيم على وجهه حتى بلغ الجسر ، جسر بغداد ، وكان الليل خاشعاً ساكناً ، والناس قد أمّوا بيوتهم ، وأنسوا بأهليهم ، وهو الوحيد الشارد لا أهل له إلا التى خلّفها تعانى سكرات الموت ، وعجز عن إسعادها ؛ ولا دار له إلا هذه الخربة التى فرّ منها . لقد كانت هذه المرأة حظّه من دنياه ، وها هى ذى تموت فلا يبقى له فى دنياه حظ ، وكانت هى نورها فلن يبقى له بعدها من نور . وتصور الوحشة المخوفة ، والوحدة المرعبة التى سيقدم عليها إن ولّت عنه هذه المرأة التى كان يعيش بها ولها ، ونظر إلى ماء دجلة يجرى أسود ملتفاً ببرد الليل ، فأحب أن تواريه أحشاؤه ، وتراءى له الموت حلواً فيه متعة اللقاء ، وأنسة الاجتماع ...

وعاد فذكر آلام الحبيبة وانتظارها ، وعجزه عن معونتها وإسعادها ، فتوجه إلى الله ودعاه من قلبه صادقاً مخلصاً وقال : « يارب ، إنى استودعتك هذه المرأة وما فى بطنها ... » ، وهمّ بالقاء نفسه فى الماء ، وفكر فى الموت فوارت صورته أحلام الحب وصوره ، ولم يعد يرى إلا هذه الهوة التى سيتردّى فيها ، وتسلق درابزين الجسر فأدركته حلاوة الروح فراح يتصور برودة الماء ويفكر فى الموت هل يأتيه سهلا هيناً ، أم هو سيذيقه العذاب ألواناً ، وحاول أن يتذكر ماسمع عن الغرق وهل يختنقون عاجلا أم يبطىء عليهم الموت ، وذكره هذا العذاب بعذاب الله يوم القيامة ، أليس الله قد حرّم الانتحار ؟ أليست هذه النفس ملكاً لله وحده أودعها جسده أمانة ليستردها متى شاء ليست له هو ولا يملكها ، وليس هو الذى خلقها وأبدعها ، وذكر أنه توجه لله واستودعه حبيبته فكيف يلقى الله آثماً ويسأله عونها وحفظها . وتنبه إيمانه فتردد ، ووقف ... ثم عاوده التفكير فى حياته بعد اليوم ، وكيف تكون إن ذهبت منها متعة الحب ، فرجع إليه يأسه وقنوطه وعزم عزماً مبرماً على الموت ، وأغمض عينيه وخفق قلبه من هول ما يقدم عليه ، وكاد يقفز ولكن ... ولكن يداً لم يطق لها دفعاً ، ولم يملك معها حراكا أمسكت به ... ذلك هو صوت أخذ أذنيه من بعيد ، ثم امتد حتى بلغ الأفق الذى أطلّ منه الفجر والأفق الذى انغمس فيه الليل ، ثم غمر النهر والشاطئين والمدينة ... فأحسّ به يشرق على نفسه كهذا الفجر فيبدد ليلها ، ذلك هو صوت المؤذن ، ينادى فى صفاء الليل وإصغاء الدنيا ، أجلّ وأجمل نداء اهتز به هذا الفضاء ومشى فيه : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

وسمع : « حى على الصلاة ، حى على الفلاح » فرأى فيها مجد الآخرة بالعبادة ، ومجد الدنيا بالنجاح ، وصبت القوة والعزم فى أعصابه فعدل عن الموت ، وأقبل يسعى فيما جاء له ، ولكنه لم يجرؤ (على هذا كله) أن يعود إلى الدار ، وحدثه قلبه أن

(١) السكين مذكر وحكى فيه التأنيث

(٢) دهن السمسم معرب شيره وعامة الشام ومصر تسميه اليوم السيرج

الفتاة قد ماتت ، فمضى على وجهه تقذفه قرية فتتلقاه قرية ، يضيفه الناس ، وقد كان فى الناس سلائق العرب وآداب الإسلام : يضيفون الغريب لا يسألونه من هو ولا يبتغون منه أجراً ولا شكراً ، وجعل يطوى الأرض والأرض تطوى سحائف عمره ، حتى حطّت به النوى فى خراسان .

ولقى من عرفه فيها ومدّ إليه يده مُسْعِداً ومعيناً فعاد إلى تجارته ... وجعل يفكر لما استقر به المنزل فى داره وامرأته والشك يَخِزُ فى قلبه ، وينكت الكتب يسأل عنه وعنها ويستنجد ، ويلح ويتوسل حتى كتب ستة وستين كتاباً[1] ، ولم يرجع إليه جواب فأيقن أنها قد ماتت ...

وأثرى وامتلأت يده بالذهب ولكن قلبه ظلّ خالياً من الحب . وما كان يوسع فيه الأسى مكاناً لحب جديد ، فكان كلما احتواه العشيّ منزله ، وأغلق عليه بابه جفا عالم الناس وراحت روحه تسبح فى عالمه هو ، عالم ذكرياته وماضيه الذى أحبه وافتقده ولم يجد منه بديلا ، فيشعر بحرارة تلك القبل ويسمع وسوستها ويلمس دفء ذلك العناق ، ويستروح نسيم تلك الدار التى كانت جنة وارفة الظلال ، فيها الروح والريحان وفيها من كل فاكهة زوجان ، فصيّرها الحب قاعاً صفصفاً ... ولكن تلك الخربة أحب إليه من هذا القصر الذى يعيش فيه اليوم وحيداً لا يؤنسه فيه إلا الذهب ...

وتصرّمت السنون ، وتتابعت خالية فارغة حتى أقامت بينه وبين ليلة المخاض حاجزاً من الأيام سمكه ثمان وعشرون سنة ، وهبّت على عمره رياح الخريف ، فذوى غصنه ، وكاد يدركه الجفاف ، فأفزعه أن يموت بعيداً عن بغداد وعن داره التى ثوت فيها الحبيبة ؛ فباع كل ما يملك بعشرين ألف دينار من الذهب واشترى قماشاً وبضاعة حملها إلى بغداد ، وسار فى قافلة له ضخمة يؤم دار الوطن ... ولم يكن له من أمل إلا أن يقيم بهذا المال قبراً ضخماً للحبيبة ويجعل فيه له مكاناً ، ولكن الدهر لم يُبلغه حتى هذا الأملَ ، فقد خرج على القافلة اللصوص . فنهبوها ، وقتلوا من فيها ، ولم يتركوا منهم أحداً ...

***

(١) كذا فى الأصل .

ونهض من بين الموتى ، وسار على رجليه وقد تبلّد ذهنه من عظم الفاجعة حتى ما يقدر على الحزن . ومشى حتى حاذى النهر ، وجعل يمر على مغارس النخيل ، ومشارع المياه ، ومنابت الورد والفل ، وهو سادر ساهم ، كأنما يمشى فى حلم ، قد ماتت فى نفسه كل رغبة إلا الرغبة فى الموت ... وماذا بقى له فى الحياة بعد ما فقد الحب وفقد المال ؟ ولكنه لم يشأ أن يموت إلا فى داره ولم يرد أن يضمّ عظامه إلا الثرى الذى ضمّ أعظم الحبيبة ، حتى يجاورها فى الموت كما جاورها فى الحياة ، وتحامل على نفسه وقام يجرّ رجليه جراً ، وكلما دنا من بغداد وأحسّ ريحها انتعش واشتد ، وعاش بذكريات الحب الذى ذهب ولم يبق إلى عودته سبيل ، وآنسه أن يرى مرة ثانية الديار التى شهدت صور هذا الحب ، ولكنه أعيا أخيراً وسقط على الشاطئ ولم يعد يستطيع الحراك ...

وجعل يفكر تفكيراً مبهماً ملتاثاً يقطعه الجوع الذى يفرى أمعاءه ، والتعب الذى يهدّ عظامه ، فيرى أنه كان فى حلم وصحا منه ... الدنيا كلها حلم كاذب : الحب ، والمال ، والصحة ، والسعادة ، والمجد ... لا يخلد شىء من ذلك ولا يبقى ... لا يبقى منه إلا ذكرى تبعث ألماً ، وتثير حسرة ، وتحرق القلب ، وتمنى أن لو كان خلق فقيراً منفرداً ، ما عرف لذة الألفة ، ولا متعة الغنى ، وعادته فكرة الموت التى كانت مرت بذهنه منذ ثمان وعشرين سنة ، ولكن دينه منعه أن يختم حياته بهذه الخاتمة البغيضة وأن يجمع على نفسه شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ، وهبت عليه نفحة من نفحات الإيمان فاستراح إليها ، وذكر أنه استودع فتاته الله ، ولا تضيع عند الله الودائع ، وأن وراء هذه الأحداث حكمة بالغة ، وقدراً حكيما . فاطمأن إلى حكمة الله وسلم أمره إليه ووجد لهذا الاطمئنان راحة وشبعاً ...

وسمع صوت بوق يرعد على حاشية الأفق فنظر فإذا (زلال[1]) ضخم قد أقبل عليه ، فلما حاذاه أشار ونادى ، وسأل صاحبه أن يحمله إلى بغداد ، وكان فيه أمير كبير ، ولكن (الديمقراطية) كانت شعار العرب ، وكانت سليقة فيهم ، لا يمنع الأمير مجده أن يقف لفقير سائل ويحمله معه فأدخله الزلال وأطعمه وخلع

(١) كلمة عباسية مولدة معناها السفينة الحربية .

عليه . ولم يُسائله عن خبره ، لأن النوم قد غلب عليه فهجع كالقتيل قبل أن يسأل وقبل أن يجيب .

ولما أفاق كان المساء قد حلّ ، وكانت بغداد قد بدت ، وسربت الزوارق والسفن على سطح دجلة الفاتن تنشد لهواً وتبتغي لذة ، وتملأ الضفتين نغماً سائغاً ، وحباً وعجداً ؛ وترنحت القصور طرباً ، وانتشت الرياض أنساً ، وتعانق النخيل وتشاكى الغرام . وتراقصت الأمواه من دجلة وتناحت بالحب ، وسكرت السفن وهامت ، وسدرت بغداد في نشوة الظفر ، وكانت بغداد هي الدنيا وكانت دارة الخلافة ، وكانت عاصمة الأرض ، وكانت منبع العلم والفن ، ومثابة الغنى والترف . وكان فيها الصلاح وفيها الفجور ، وفيها الخيرات وفيها الشرور ، وفيها من كل شيء ... وكذلك تكون الدنيا !

وكان دجلة يسير مزهوًّا طرباً . فقد بدأ سيره منذ الأزل ، ورأى الحكومات تقوم وتقعد حتى ملّ قيامها وقعودها ، وشهد من بأساء الحياة ونعيمها ما زهّده في نعيمها وبؤسها ، ورأى الأنام حتى كره مرأى الأنام ، ولكنه لم ير أياماً أحلى ، ولا مجداً أبق ، ولا ناساً أنقى وأتقى ، من تلك الأيام وناسها ...

وجاز الزلال بتلك السفن والزوارق الحالة السكرى كأنه البطل القوي يمر بالحسان في يوم عرس ، فاجتمع على الصفحة الحب والحرب ، والعز والهوى ، هذا يمثله زلال القائد ، وتلك تمثلها زوارق العشاق ، وكان يمضي إلى غايته مسرعاً كأنه يسابق شعاع الشمس إلى الأفق الزاهي ، وكان هو أيضاً شعاعة من الشمس التي أضاءت الدنيا في هاتيك الأيام ، فأشرقت على القلوب عاطفة وجمالا ، وعلى العقول علماً وكمالا ، وعلى الإسلام عظماً وجلالا ، وعلى الناس كلهم حضارة وتمدناً وسلاماً وأمناً ، وضوّأت لهم طريق المجهول ، وشقت لهم السبيل الموصلة إلى تحقيق المثل العليا في المجتمع البشري ، تلك هي شمس بني العباس إذ كان بنو العباس سادة الأرض .

وأنزله الزلال على الجسر ، حيث قام تلك الليلة ، فأعاده الجسر إلى ماضيه ، فأحسّ بأن هذه السنين كلها لحظة واحدة ، وأنها صفحة قد سقطت من سفر حياته ، فاتصل ما قبلها بما بعدها ، ورأى الناس من حوله فهمّ بأن يسألهم درهماً يشترى به عسلا ودقيقاً وشيرجاً لامرأته التي أخذها المخاض ، وأسرع يريد أن يدركها قبل أن يشتد بها الألم ، ثم انتبه فرأى هذا الحجاب الصفيق من الزمان يقوم بينه وبينها ، ثمان وعشرون سنة ليست يوماً ولا يومين ... دهر طويل ولد فيه ناس ومات ناس ، عمر كامل ... فتهافت وخمدت هذه الشرارة من الأمل التي أضاءت في نفسه ، وسار محطما مكدوداً ، يبصر الوجوه من حوله فيراها غريبة عنه لا يعرفها ، ويرى المسالك والدروب فيفتش عن ذكرياته فيها فلا يجدها ... حتى بلغ الدار ونظر فاذا الخربة التي خلّف فيها الحبيبة قد صارت داراً فخمة على بابها الجند والشاكرية فوقف ينظر إليها من بعيد ... هذه داره التي رجع اليها ليتخذ لنفسه من ثراها قبراً قد أنكرته وأعرضت عنه . لقد عاد غريباً في بيته ، منكراً في بلده . إنه ميت يمشي بين الأحياء . لقد بحث عن أثر واحد من دنياه التي كان يألفها ، فاذا كل شيء قد تبدل ، فلا الوجوه بالوجوه ، ولا الأمكنة هي الأمكنة : فياويح الزمان كيف صنع ذلك كله ! هذا الجبار المخيف الذي يفعل الأفاعيل ، ولا يحس به أحد ولا يبصره ولا يلمسه بيده ... ثم استغفر الله وأناب إليه ، إنه هو الفاعل المدبر ، فلا الزمان ولا الأحداث بقادرة على شيء ، إنه هو وحده الذي يصرف الأكوان .

وولى ليعود فيضرب في الأرض حتى يموت ، فما يبالي الآن أين يدركه الموت بعد أن حرم آخر أمانيه ، وهي أن يواريه الثرى الذي وارى جسد الحبيبة ، ولم تسيل من عينه دمعة ، ولم يتحرك لسانه بكلمة وداع ، ولم يفكر في شيء فقد تواردت الآلام على قلبه حتى صار هو كتلة من الألم جامدة تسمى قلباً ، وتتابعت عليه المصائب حتى صارت حياته كلها مصيبة ... ويئس من السعادة حتى ما عاد يفكر فيها ، أو يؤله فقدها ، وتلفت ليودع المكان الذي اصطفاه من دون الأمكنة ، وأودعه أعز شيء عليه : حبيبته وذكرياته ، ويشمله بنظرة فاذا هو يرى دكان بقال كان يعرفه لا تزال قائمة على العهد بها ، كما يقوم الطلل البالي في المدينة العامرة ، فأسرع إليها ...

وكان فيها شاب حدث علم منه أن أباه البقال مات من عشرين سنة ، وأن الدار لابن داية أمير المؤمنين المأمون وصاحب بيت ماله ، وأن لهذا الرجل قصة عجباً ، فقد كان أبوه من سراة التجار ،